

البندقية كشيء جيد

اسطفان شيحا، لبنان

قبل 7 تشرين الأول/أكتوبر 2023 بوقت طويل، وعلى الرغم من التصدّعات السياسية والانقسامات الاجتماعية على أسس الطبقة والجغرافيا والدين والعائلة، كنتُ أفكّر فيما أطلقت عليه سارة أحمد "الأشياء اللاصقة" التي تُبقينا متجذّرين بالأرض، ولا سيّما في ظلّ العيش في حالة من النضال والمقاومة والحرب الشاملة.¹ ما هي الأشياء التي تلتصق في داخلنا، وتلصقنا أيضاً بعضنا البعض الآخر اجتماعياً؟ ما هي هذه "الموضوعات الجيدة"، كما أسمتها ميلاني كلاين،² التي تُعبّر الأجيال، فتولد وتُعاد ولادتها بوصفها مراسي التماسك الاجتماعي في ظلّ أشكال شرسة من عنف الاستعمار الاستيطاني الصهيوني؟ ما هي بعض هذه الأشياء الداخلية اللاصقة: شجرة الزيتون التي يزرعها الفلسطينيون ويدافعون عنها ويحرقها المستوطنون بهمجية، والتين والزيتون في الأرض وفي الفن والخزف الفلسطيني، وعنب الخليل في قصيدة عز الدين المناصرة. وربما أيضاً الفدائي/ المناضل/ المقاتل/ المجاهد (ذكراً كان أم أنثى)، والكوفية، والمفتاح، والحجر، والملعقة، والطائرة الورقية، والنفق، والبندقية، نعم... البندقية.³ عندما نفكّر في "الأشياء"، فإننا لا نعني فقط الأشياء المادية التي تلتصق حولها عائلاتنا ومجتمعاتنا وعلاقاتنا الحميمة. فكُلّ فلسطيني يعلم أن هذه الأشياء عرضة للتدمير الصهيوني والإمبريالي، وللسادية، والسجن، والسرقة. إن هذه "الأشياء"، بأكثر من ذلك، هي أيضاً موضوعات داخلية، أي صور ذهنية وعاطفية لتشكيلات وعلاقات وأشياء خارجية تمّ استدخالها في الذات، وفي هويّاتنا، وفي رؤيتنا للعالم. وهذه الأشياء لا تخصّ الذات وحدها، بل تشمل أيضاً تجارب الآخرين (كما في المثال الكلاسيكي في نظرية التحليل النفسي، علاقة الأم بثدييها وبالرضيع)، إذ نشحنها بمشاعرنا من حب وكرهية وقلق ولذّة. إن هذه الأشياء "الجيدة" يمكن أن تكون علاقات اجتماعية بين الرفاق والعشاق وأفراد العائلة، أو حياة أبطالنا وبطلاتنا وصورهم، أو الإيمان المشترك بين أبناء الوطن والمؤمنين، أو العلاقة بالأرض نفسها.

لقد فهمت كلاين أن الرضيع يختبر هذه الموضوعات "بصورة ملموسة كما لو كانت حاضرة فيزيائياً داخل الجسد"، مسبّبة اللذة (الثدي كعضو-شيء داخلي جيد) أو الألم (الثدي كعضو-شيء داخلي شيء). والأهم من ذلك أن "استدخال شيء جيد مستقرّ والتماهي معه هو أمرٌ أساسي لقدرة الأنا على التماسك ومكاملة الخبرة."⁴ وإن كان لي أن أعقّب على ذلك، فإنه دون موضوعات داخلية جيدة تنشط الأنا، ومعها تطوّر البنية التحتية النفسية للذات، والاستمرارية، والنضال.

حَصَّ المؤلف الجنوب: المجلة الفلسطينية للدراسات التحريرية بهذه المقالة، بإذن من المؤلف، ترجم النصّ عن الإنجليزية عبد الرحيم الشيخ.
"The Gun as a Good Object"

بذكرنا ديفيد إنغ أن منظور كلاين ليس بريئاً، بل إنه ينبثق في حقيقة الأمر من الحداثة الاستعمارية، حيث "يُضبط الحب والكراهية وجدانياً لخلق حقلٍ من الموضوعات الجيدة والسيئة، ومن الذوات الليبرالية والأصلانية."⁵ وعلى صلة بتجربة الفلسطينيين مع الألعاب الذهنية الصهيونية، فإن هذا التوزيع غير المتكافئ للوجدان يفضي إلى عملية نفسية من الترميم تنشئ "حلقة مُفرغة من الضحايا والجناة"، حيث يوضع المستعمر بوصفه كلاً من الجاني المرتكب للعنف وضحية الضرورة التي ألزمته أن يكون الجاني، ليصبح هو ذاته بحاجة إلى الشافي والتعافي.⁶

في الواقع، قد تكون الموضوعات والارتباطات في كثير من الأحيان مشوبة، إذ لا شيء منها نقي تماماً. فقد يكون هناك رفاق سبق أن أعجبنا بهم ثم خانوا شعبهم، تماماً بقدر ما قد يكون هناك آباء خانوا أبناءهم. هناك رفاق نحبهم وقد يضحون بحياتهم من أجلنا، لكنهم في الوقت نفسه قد يكونون عشاقاً أو أزواجاً أو زوجات أو آباء أو أمهات أو أبناء أو بنات سيئين. لذلك، فإن بعض أنقى الموضوعات "الجيدة" قد تكون الأسوأ، والأشد ضرراً، والأكثر أذى. وفي حقيقة الأمر، ليست كل الأشياء اللاصقة هي أشياء جيدة. ولربما، وبالنسبة إلى أولئك المهمشين في العالم (المعرقنين، والمجندين، والمجنسين، والمضطهدين)، فإن ما تُرى على أنها أشياء جيدة، قد لا تكون بتلك الجودة بالنسبة إلى المستعمرين والمهيمن عليهم. نُعلمنا لورين بيرلانت في كتابها **التفاؤل القاسي** أن "علاقة التفاؤل القاسي توجد عندما يكون ما ترغب فيه في الواقع عائقاً أمام نجاحك."⁷ فالأشياء التي نستثمر فيها—تلك التي تعد بالأمن، والاستقلالية الفردية، والارتقاء للمستوى الأفضل، أو "الحياة الجيدة"—غالباً ما تتحول إلى تعلقات تُديم الاستغلال، وإلى أشكال من التماهي تعدنا ب حياةٍ وذاتيةٍ يتعدّر نيلهما. هذا، وتصف بيرلانت كيف نظل متعلقين ب"شروط إمكان منقوصة."⁸ صحيح أن تحقيق هذه الإمكانيات مستحيل، لكن التخلي عنها يبدو بالقدر نفسه غير معقول. إن هذه التعلقات "القاسية" تقيدنا بأوهام، نحو: وهم الدولة الليبرالية الديمقراطية، والتنمية المرتبطة بالسوق، والإيمان بقيادات كليبوتوقراطية (حرامية)، والثقة بالقوانين والمؤسسات الدولية، إلى آخره. وقد تكون، تلك التعلقات، إيماناً يائساً بالبنى ذاتها المصممة أصلاً للتواطؤ على تهميشنا، بل وحتى القضاء علينا، والعمل بفاعلية على إخضاعنا وتحييدنا.

ومع ذلك، فإن أولئك الواقعيين تحت الاحتلال، في واقع الحرب الشاملة والسلب، يتمسكون بأشياءهم حتى إن كانت مشوبة، يعتصمون بها بعنادٍ ومحبةٍ يعملان على إنقاذهم وسط هذا السيل الجارف الذي لا يهدأ من العنف الإباضي.⁹ إن هذه الأشياء تصبح سائلة، ومتحركة، وقادرة على امتصاص قوى وجدانية جديدة. وقد يسأل المرء، في حقبة سابقة، كيف نميز بين الأشياء الجيدة والأشياء القاسية؟ وكيف، في حقبة التسارع المحموم للإلغاء، نحث عن تلك الأشياء التي تُديم بحق الحياة الجماعية، ونميزها عن تلك التي تُعد بتفاؤل إنساني بينما تمنح موتاً بطيئاً؟ لكن هذه اللحظة الزمنية تحظر علينا الانزلاق إلى هذا الترف الفكري الذي يسيء توجيه حاجتنا إلى التعلق، حقيقة، نحو ما هو يقيني في حياتنا. لذلك، وعضاً عن الانكفاء إلى التجريد الفكري والنظري وإلى المثالية (الألمانية)، أقترح هنا أن نتعلم من كبار محاربينا، ومن أسلافنا وإخوتنا وأخواتنا، وأن نحفظ بأشياءنا في ذواتنا كي نستخدمها وسائل للذهاب نحو مستقبلٍ ما كان ليعترف بنا أو يفسح لنا مكاناً لولاها.

عندما نفكر في كون الأشياء "لاصقة"، فإن سارة أحمد تتبّع "كيف تُداول كلمات الشعور وأشياء الشعور وتولد آثاراً: كيف تتحرّك، وتلتصق، وتنزلق."¹⁰ وهي تنظر في الرصيد السياسي والاجتماعي والذاتي الذي تُراكمه الموضوعات عبر تواريخ "تشابك مع العواطف تحديداً بقدر ما يتعلّق الأمر بما يلتصق، وبالروابط التي تُعاش بوصفها الأشدّ كثافةً أو الأكثر حميميةً، كأنها أقرب إلى الجلد."¹¹ تمتلك الأشياء عند أحمد خاصية الزوجة، وهي أيضاً ملموسة من حيث أنها تُداول عبر تفاعل الأجساد البشرية (وغير البشرية)، مكثّفةً شحنتها العاطفية، والنفسية، والليبيدية، بل وحتى الإيروسية، كما تعلّمنا أفغي سكتوبولو في قراءتها لممارسات اللعب العرقي.¹² ولذلك، فإننا ننظر إلى "الأشياء" بوصفها كينونات نفسية، أي بوصفها صوراً مُستدخلة تشكّل بنية الأنا، وفي الوقت نفسه هي بني اجتماعية تُراكم المعاني والخصائص الوجدانية كلما تداولتها المجتمعات وتتداولها.

رمزية البندقية

في التفكير في الأشياء، المادية منها والنفسية، تبرز البندقية بعناد عند النظر في النضال الفلسطيني، سواء من أجل البقاء في وجه التطهير العرقي أو السعي إلى التحرّر. وليس القصد من ذلك الإثارة أو الاستفزاز، بل بأكثر من ذلك التفكير ترابطياً في الأشياء التي تظهر بوصفها مركزية لهوية النضال الفلسطيني والعربي. وكما أن الصهاينة مهووسون بتدمير أشجار الزيتون في فلسطين، فإنه ليس من قبيل الصدفة أن تكون البندقية هي الشيء الذي يسعى الصهاينة باستماتة إلى انتزاعه من الفلسطينيين. إنهم يسعون إلى نزع سلاح الفلسطينيين، لا عسكرياً فحسب، بل نزع إرادتهم في أن يكونوا محاربين لأجل الوفاء بالتزامهم لأسلافهم وشعبهم، والثبات على أرضهم، والبقاء مخلصين لمستقبلهم عليها. لكن الصهاينة والقوى الإمبريالية ليسوا وحدهم من يسعى إلى نزع سلاح الفلسطينيين. فكما نظرت أفغي سكتوبولو، يعمل الليبراليون وكثيرون في اليسار دون كلل أو ملل على تجريد القوى الثورية من سلاحها عبر خطابات كونية وإنسانية، وهي انتقائية بطبيعة الحال، عن العقلانية والتمدّن. وفي حديثها عن الولايات المتحدة تحديداً، تشير سكتوبولو إلى أن "اليسار مشروط بنزع سلاح نفسه، جزئياً عبر ربط نفسه بوهم أن السجال، أو رؤية الأمور من الجانب الآخر، أو الإجرائية، يمكن أن يكون ردّ فعل كافٍ لوقف الفاشية والإبادة الجماعية."¹³ وعلى ذلك، فإن البندقية تمثّل شيئاً غير قابل للمصالحة مع هذه الإنسانية الليبرالية، بقدر ما تمثّل أيضاً تحدياً للحاجة التكوينية لدى الصهيونية إلى الهيمنة على الفلسطينيين، ومطالبتهم بالامتثال قبل أن يتمّ القضاء عليهم.

في التفكير بـ"رمزية البندقية"، يتناول باسل الأعرج الكيفية التي ظهرت بها البندقية مع بدايات تشكّل الهوية الوطنية الفلسطينية ذاتها. فقد "تجلت [البندقية] في الأغاني، والأمثال، والمراثي، والفنون البصرية، والملصقات"، وذلك، كما يخبرنا الأعرج، لتظهر في اللحظات الحاسمة من النضال، وتحمل رصيماً رمزياً كبيراً في "الهوية والوعي الفلسطينيين". فالبندقية، إذن، ليست مجرد شعار للكفاح المسلّح "بقدر ما هي أداة ورمز لما بإمكانها أن تنجزه." وسواء في مقاومة نزع السلاح على يد إبراهيم باشا في القرن التاسع عشر، أو في انتفاضة البراق في العام

1929، أو في ثورة العام 1936، أو حركة الغوار الفدائية بعد العام 1967، يذُكرنا الأعرج أن البندقية "أصبحت أحد أهم رموز الهوية الفلسطينية... للتعبير عن رفض أيّ حلول تنطوي على تنازلات." إن ملاحظات الأعرج مهمة لأنه يرسم خريطة القوة الوجدانية والنفسية للبندقية كـ"شيء جيّد"، لا كشيء جرى تصنيعه وتوظيفه عمداً عبر الدعاية، بل بصورة عضوية من خلال الممارسة الثورية. ومن خلال تلك الممارسة، جرى "اختزان" البندقية كشيء في "الذاكرة والوعي" الفلسطينيين، وكذلك في وعي المنتجين الثقافيين الفلسطينيين.¹⁴

فماذا لو نظرنا إلى هذه البندقية، مثل شجرة الزيتون أو الكوفية أو المفتاح، كـ"شيء جيّد" تكوينياً ووجهً يقينية الرغبة الفلسطينية في التحرُّر؟ إن البندقية كشيء جيّد ليست فتياً، ولا ينبغي النظر إليها كشيء رومانسي من قبيل الوهم أو السذاجة. كما لا يجوز الخلط بين البندقية في أيدي الفلسطينيين وعقولهم وبنادق المحتل والإمبريالي والمستوطن الإجرامية. فالبندقية في أيدي الفلسطينيين وعقولهم هي موضوع مستدخّل لا يعبر عن الرفض وحسب، بل عن الإثبات أيضاً. وفي هذا السياق، تأتي شهادة ليلي خالد معبرة، حين تؤكّد "بوصفي فلسطينية، كان عليّ أن أؤمن بالبندقية بوصفها تجسيداُ لإنسانيّ وتصميمي على تحرير نفسي وأبناء شعبي. لقد كان على كلّ فلسطيني يحترم نفسه أن يصبح ثورياً."¹⁵

تفتح مقولة ناصر أبو رحمة حول المخيم-الكومونة أمامنا إدراكاً معيّنًا أن صناعة العالم الثوري الفلسطيني هي بالفعل "القدرة على صناعة المكان"، أي "خلق مكان قادر على دعم ذوات جماعية جديدة وأشكال جديدة من الترابط تقلب التمايزات بين الحاكم والمحكوم."¹⁶ إن هذا هو المكان الذي نشأت فيه ليلي خالد، وعاشت، وأحبّت، وفكّرت، وناضلت. وإن هذا المكان يجب أن يفهم على المستوى المادي والحيزي بوصفه ممارسةً ثوريةً قائمةً على الأرض. ولكنه أيضاً مكان منظّم اجتماعياً ونفسياً من خلال شبكة من الأشياء الاجتماعية والرمزية التي تعيش داخل الذات الفلسطينية، كما يقترح الأعرج. إن هذا المكان المادي يصبح متماسكاً عبر نسيج من الأشياء الاجتماعية المشتركة المُشربة بالقوة والقيمة الاجتماعية والذاتية. وعلى حدّ تعبير باسم سرحان، الذي يقتبس عنه أبو رحمة، كانت الثورة الفلسطينية أيضاً "تحوّلاً في الجوهر ذاته للنفسية الفلسطينية."¹⁷

وإذا كان الأمر كذلك، فلنأخذ بعين الاعتبار، كما يفعل الأعرج، اقتصاد الأشياء الرمزية في المكان الثوري لدى أبو رحمة، أي التسميات الرمزية والثقافية التي تؤمّن التماسك واليقين للذات الفلسطينية، وضروريات المقاومة النفسية والاجتماعية. وربما يمكن القول إننا نفكّر في اقتصاد أشياء النفس الفلسطينية. دعونا ننظر إلى البندقية كشيء من بين أشياء عديدة مشبعة بالتاريخ والمشاعر، كشيء لاصق يستمدُّ معناه من رفقة الدرب بين من يحملون البندقية، ومن تقوم على خدمتهم، ومن العائلات التي تتجمّع حول من سقطوا منهم والبندقية في أيديهم. دعونا ننظر إليها كشيء يربط النضالات الماضية، كما يشير الأعرج، سواء كانت الثورة الكبرى 1936 أو 7 تشرين الأول/أكتوبر 2023، بحاضر مترامن يجمع بين النضال ووعد المآل.

إذا كان المرء متشككاً بشأن القوة النفسية للبندقية كمثال على "شيء جيّد" أساسي يسمح للفلسطينيين بالبقاء واضحين بشأن يقينيّة تحرّزهم وما يجذّر الفلسطينيين في النضال، فما عليه سوى أن ينظر إلى أولئك الذين يسعون إلى نزع سلاح الفلسطينيين كشرط مسبق للمحو السلمي للفلسطينيين. إن نزع سلاح الفلسطينيين (وكذلك اللبنانيين) ليس ضرورة لوجستية من أجل "حلّ سلمي"، ولا هي خطوة لخفض التصعيد بغية إعادة توزيع المساعدات وحفظ الأمن. فالمستعمر والإمبريالي، الذي تفوق ترسانته العسكرية ما يمكن أن يمتلكه المستعمر، يفهمان البندقية بأكثر من كونها مجرد سلاح في الحرب. إنهما يدركان قيمتها النفسية والاجتماعية التي يجب انتزاعها ممن يستهدفون بالإبادة والإزالة. ولهذا السبب، فإن "ثقافة السلام" لدى ترامب والدولة الصهيونية لا تقتصر على مطلب "نزع سلاح حماس" في غزة وحسب، بل تشمل أيضاً "وجوب نزع سلاح حماس والسلطة الفلسطينية من مناهجهم الدراسية" ونزع سلاح "نظامهم التعليمي".¹⁸

لقد اقترحتُ البندقية كـ "شيء جيّد" ليس بسبب طبيعتها المثيرة أو الاستفزازية، بل بأكثر من ذلك لأنها تمنحنا فرصة واضحة للتفكير في شيء مادي بوصفه موضوعاً نفسياً، وكذلك كشيء تُنظّم حوله العلاقات الاجتماعية. إن الأشياء متوارثة بين الأجيال وليست ثابتة أبداً، فهي تتراكم وتفقد معناها. إنها تراكم القوة الوجدانية والتّصادي السياسي أثناء تداولها. إنها تُتناقل بين الناس والجماعات والأجيال والتشكيلات الاجتماعية: تتحرّك، وتلتصق، وتزلق عبر نسيج الحياة الفلسطينية، ومن خلال المكان الثوري "لدعم ذوات جماعية جديدة وأشكال جديدة من الترابط" والتواصل الاجتماعي، كما يشير أبو رحمة.

ما هو، إذن، نوع العلاقات التي تسهّل انتقال هذه الأشياء، ليس فقط داخل هذا المكان الثوري، بل أيضاً ضمن فضاء اجتماعيٍّ مشتركٍ لطيفٍ سياسيٍّ فلسطينيٍّ بالغ التنوّع؟ ما هي الروابط الاجتماعية، وما هي أشكال الحميمية والتضامن التي تمكّن من نقلها؟ إذا كانت هذه الأشياء تنتقل من جيل إلى جيل، وإذا كانت تُمرّر بين العشاق، والرّفاق، والأقارب، فماذا يحدث لهذه الأشياء، ومعانيها، في مواجهة إبادة أجيال من الأمهات والآباء والأطفال والعشاق؟ ماذا يحدث عندما تدمّر الأجساد ذاتها التي تنتقل عبرها هذه الأشياء مكثّفةً شحنتها العاطفية والنفسية، بشكل منهجي؟ وفي هذا الصدد، وبينما نشعر بالضيق المتزايد حيال المكان الثوري الذي وُرث لنا وأوكل إلينا من قبل أسلافنا، أحاول أن أحدّد تلك الأشياء، أو الموضوعات إن شئت، التي تمنحنا الوضوح، وهي الأشياء التي في داخلنا التي يجب أن نتمسك بها بينما تضيق هذه الجدران علينا. ولكن أيضاً، هذه الأشياء في داخلنا التي يجب أن نتمسك بها لأنها ستمكّننا من السير نحو المستقبل "لاحتلال" المكان الثوري الذي يحتاج إلى تحرير. إنني أحاول أن أجد "ما هي الأشياء التي نعملها معنا إلى هذا الحاضر؟"

حياة الصعلوك

يتحدّث باسل الأعرج أيضاً عن الصعاليك قبل الإسلام، وهم "ثلّة من الرجال الذين خرجوا عن العرف والعادة وواجهوا النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في قبائلهم، فإما نبذتهم القبائل أو قاموا هم باعتزالها".¹⁹ يحدثنا

الأعرج عن الصعاليك من أجل تثوير "وجه الشبه بين الثوري والمجرم، هو أن كليهما قرّرا الخروج عن الأنظمة والقوانين المتعارف عليها."²⁰ إن هذا الفهم لحياة الصعاليك يتيح لنا فهماً وافياً لشرط أساسي لأن تكون فلسطينياً (وللكينونة الفلسطينية) في عالم جعل الهيمنة على الفلسطينيين أمراً طبيعياً، ذلك أن الإنسانية الليبرالية، و"الأنظمة والقوانين المتعارف عليها" هي توجيه خاطئ ومصيدة. وبكلمات أخرى، فإن الأعرج يرى العالم والعلائقية والتجربة الاجتماعية للصعاليك كممارسة اجتماعية، ولربما كشكل من أشكال الهجاج من العبودية وشق عصا الطاعة، ولا ينبغي أن يُرى على أنه انحراف عن "الأنظمة والقوانين" أو "خروج" من "الأنظمة والقوانين المتعارف عليها". كما لا يجب أن ننحرف إلى نقاش عقيم ومتحذلق حول كون هذا النظام الدولي و/أو خطابات "حقوق الإنسان" ممرّكة غريباً، أو "مش لإلنا"، أو "استيراداً" استعمارياً وإمبريالياً، فهي ليست كذلك. والأسوأ من كونها مجموعة قيم "أجنبية" مفروضة على المجتمع العربي-الإسلامي، فإن الإنسانية الليبرالية كانت الدعوة التي من خلالها يسعى السلطويون (الطبقة الحاكمة وكذلك الإمبرياليون) لزجّ الفلسطينيين في غرفة انتظار لغرف الغاز الخاصة بهم.

لا ينبغي التعامل مع صعاليك الأعرج باعتبارهم مجرد حقيقة تاريخية، بل كمفهوم تحليلي، يخبرنا عن حالة "الخروج". وعلى ذلك، فإذا كان الأعرج يتحدّث عن الخروج الطوعي للصلوك/ الثوري، فإنني أقول إن الاعتراف بالظروف التي تجبر الصلوك على الخروج يحزّرننا من قيود الإنسانية الليبرالية ومحدّداتها التي لم تخدم الشعب الفلسطيني أبداً، بل استخدمت فقط لإبقائه على قيد الخضوع والتبعية. إن حياة الصلوك تعيد تركيزنا على المطاردين والعلاقات الجماعية التي تربطنا بمجتمعاتنا، وعائلاتنا، وأرضنا، وأمّتنا. إنهم مَنْفُويون ليس بالمعنى الذي يُنفى فيه الفلسطينيون عن أراضيهم (مع أن كثيرين منهم كذلك بالفعل)، بل بمعنى أن الفلسطينيين طُردوا من جدارة الانخراط في خطاب حقوق الإنسان. يخبرنا الأعرج أن حياة الصلوك هذه، حياة اللص، والطرید، والمنفّي، تتطلّب منه أن "يتقن آليات العمل خارج القانون."²¹ لقد علّمنا الثوريون الفلسطينيون عبر العصور هذا الدرس. فحملة خطف الطائرات في السبعينيات والثمانينيات، والعمليات الاستشهادية في التسعينيات، وعمليات الغوار الفدائية خلال انتفاضة الأقصى، والدرس الذي علّمنا إيّاه الأعرج... كلّها تنبثق من هذا النوع من حياة الصلوك الثوري، ومن إدارة الظهر الواعية للإنسانية البرجوازية والإيمان القسري بالمؤسسات الدولية التي يمكنها، في أحسن الأحوال، أن تقبل الفلسطينيين فقط كلاجئين بلا دولة.

لقد أجبرنا 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 على فهم أن الصلوك ليس مجرد مجرم وثورى مقدودان من القماش ذاتها، فهذا نعرفه سلفاً. بل إن الصعاليك، بأكثر من ذلك، هم أولئك الذين يسعون إلى العيش في عالم يفهم بحقّ أنهم منبوذون منه فعلاً. لقد فُرض علينا التفكير بعالم التواطؤ ليس بوصفه انحرافاً في السلطة والطبقة الفاسدة (من قبل خائنيها)، بل بوصفه النظام المعياري الذي يجعل الفلسطينيين، بحكم وجودهم ومحض وجودهم، مصدر إزعاج لأساطير الإنسانية الاستعمارية. ولذا، فإن حياة الصلوك هي الحياة التي تدرك الحقائق المادية للعالم الذي يعيش فيه الصلوك... مع الآخرين. ومع هذا الإدراك، وعبور سجاج هشّ لم يظن إلا قلة منّا أنه يمكن اختراقه، ناهيك عن اختراقه بسهولة، جعل صعاليك الكرامة والشجاعة يدفعون بالذاكرة إلى الواجهة. لقد أجبرنا

الصعاليك، صعاليك 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023، على رؤية إمكان التحزُّر، وضعف المشروع الصهيوني الفاشل، وتصرفاته العدوانية وعجزه الذي يعبر عنه بنوبة إبادة جماعية.

في الحقيقة، يمكننا التفكير في الصعلوك نفسه كشيء جيّد. لكن الصعاليك، كمجتمع من الثوّار المطاردين، يعلّموننا أيضاً أن الأشياء الجيدة أساسية للعيش كجماعة. وسواء كان الخروج طوعاً، كما يطرحه الأعرج، أو حالة شعب يرفض الاستسلام ويناضل من أجل التحزُّر، فإن حياة الصعلوك تمنحنا نموذجاً عن كيفية ارتباط الأشياء اللاصقة بالعلاقة بين الناس والمجتمعات وأرضهم، بين من يعيشون ويعشقون ويناضلون بينما يُطردون من النظام العالمي القائم على "الأنظمة والقوانين المتعارف عليها". إن العلاقة بين حياة الصعلوك و"الأشياء الجيدة" تكمن في أن الأشياء المتبادلة بين الأحبة والرفاق والعائلة والأجيال (مثل البندقية بوصفها موضوعاً مادياً وموضوعاً "رمزياً"، كما يوضح الأعرج) تصبح "المكان"، أو قاعدة التشغيل التي من خلالها يخلق الفلسطينيون ويستثمرون في إنشاء "أشكال ترابط" وحياة جديدة ومتوارثة، كما قد يقول أبو رحمة ونادرة شلهوب-كيفوركينان. لقد أجبر 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 العالم على مواجهة الوقائع المادية لفلسطين التي لم يكن بالإمكان طمسها عبر التواطؤ مع الصهيونية من قبل الأنظمة والطبقات العربية الخائنة. إن الأشياء الجيدة التي تربط الفلسطينيين بهويّتهم، وأنفسهم، ومجتمعاتهم، وأرضهم، تستعصي على أن يُستولى عليها وعلى أن تُباد من قبل هذه الأنظمة وهذه السلطة الاستعمارية الإبادية. لقد أكّد طوفان الأقصى ما يطلق عليه حسين البرغوثي "التنسيق المنطقي" لحياة الفلسطينيين ونضالهم في أنحاء فلسطين كلّها كما كان طوفان الأقصى فلسطين، وليس طوفان غزة وحدها.²² وفي هذا السياق، تُعلّمنا شلهوب-كيفوركينان أن "مكان الموت الفلسطيني هو في الوقت نفسه مكان للذاكرة والاستذكار، وبالتالي مكان للحياة والعيش."²³ وفي سخريّة جارحة، سخريّة أولئك الذين سينتصرون، لم يؤدّ 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 وما تلاه من إبادة إلى محو الشعب الفلسطيني أو الأشياء التي تنظّمهم ذاتياً وجماعياً ووطنياً ونفسياً، بل على العكس من ذلك، إذ كسر طوفان الأقصى نظام الموت البطيء لضمان تماسك نظام الأشياء الأساسي لهوية الفلسطيني وعلاقاته بالأرض، أي هذا الشيء اللاصق... البندقية وعلاقتها بأحد أكثر الموضوعات تكويناً للذات الفلسطينية، وهي: العودة

الإحالات

[1] Sara Ahmed, *The Cultural Politics of Emotion* (Edinburgh: Edinburgh University Press), 2014, 14.

[2] Melanie Klein, "The Importance of Symbol-Formation in the Development of the Ego," *The International Journal of Psychoanalysis*, 11 (1930): 24–39; Melanie Klein, "Notes on Some Schizoid Mechanisms," *International Journal of Psycho-Analysis*, 27 (1946): 99-110.

[3] انظر، على سبيل المثال:

Stephen Sheehi, "Forging Revolutionary Objects," in *Producing Palestine*, ed., Helga Tawil-Souri and Dina Matar (London: Bloomsbury, 2025), 154-168.

- [4] Hinshelwood, *A Dictionary of Kleinian Thought* (London: Free Association Books, 1991), 71.
- [5] David Eng, "Colonial Object Relations," *Social Text*, Vol. 34, No. 1 (2016): 1-19, 2.
- [6] *Ibid.*, 12.
- [7] Lauren Berlant, *Cruel Optimism* (Durham, NC: Duke University Press, 2011), 1.
- [8] *Ibid.*, 24.
- [9] Stephen Sheehi, "What Objects Should We Carry?" *Parallax*, Vol. 30, No. 2 (2024): 208–226.
- [10] Ahmed, *op. cit.*, 14.
- [11] *Ibid.*, 54.
- [12] Avgi Saketopoulou, *Sexuality Beyond Consent: Risk, Race, Traumatophilia* (New York: NYU Press, 2023).
- [13] Avgi Saketopoulou, "Fighting Fire with Fire: Aesthetics, Exigent Sadism, Insurgency", *Avenali Lecture*, Townsend Center for the Humanities, University of California, Berkeley, 26 October 2025, accessed 15 March 2026. <https://youtu.be/XuB15b8Eg-k?si=RxhSobKQ8b3V20n8>.
- [14] باسل الأعرج، وجدت أجوبيتي (القدس: دار رثبال، 2018)، 125-134.
- [15] Leila Khaled, *My People Shall Live: An Autobiography of a Revolutionary* (SN; SP, 1973); 38.
- [16] Nasser Abourahme, "Revolution after Revolution: The Commune as Line of Flight in Palestinian Anticolonialism," *Critical Times*, Vol. 4. No. 3 (2021): 445-475, 447.
- [17] *Ibid.*, 455.
- [18] Joseph Frager, "It Is Not Enough for Hamas to Disarm Their Weapons - They Must Disarm Rtheir Textbooks Too," *Israel National New*, 25 January 2026, accessed 15 March 2026. <https://www.israelnationalnews.com/news/421428>.
- [19] الأعرج، مصدر سبق ذكره، 135.
- [20] المصدر نفسه، 137.
- [21] المصدر نفسه، 136.
- [22] حسين البرغوثي، "عن المكان المنقرض" في الفراغ الذي رأى التفاصيل (رام لله: دار البيرق، 2006)، 81-102.
- [23] Nadera Shalhoub-Kevorkian, "Criminality in Spaces of Death: The Palestinian Case Study," *The British Journal of Criminology*, Vol. 54, No. 1 (2014): 4.